الانسان والاسلام

الدكتور علي شريعتي



ترجمة: عادل كاظم

الدكتور علي شريعتي

الانسان والاسلام

محاضرة ألقيت في كلية النفط بآبادان

نقلها الى العربية: عادل كاظم

دار سُروش للطباعة والنشر
جمهورية ايران الاسلامية
١٤٠٠ هـ. / ١٩٨٠ م.

سلسلة الفكر الثوري الاسلامي (١)

دار سُروش للطباعة والنشر
شارع الاستاذ مطهرى، رقم ٢٢٨، بناية جامجم
الكتاب: الانسان والاسلام
المؤلف: الدكتور على شريعتى
المترجم: عادل كاظم

الطبعة الاولى، سنة ١٤٠٠ هـ. / ١٩٨٠ م.

الانسان والاسلام

موضوع حديثي هو «الانسان والاسلام»

البر نامج الذي سمعناه في المقدمة كان مثيرا لاعجابي، لأن من لايعلم بالواقع يتصور بأن حديثي الذي اخترته انا لهذه الجلسة، وهكذا الاحاديث التي تفضل بها الاخوة الاعزاء كان معدا من قبل ومتفقا عليه سابقا، في الوقت الذي أنا لم التق الاخوة من قبل هذا اليوم، وحتى القصيدة الشعرية التي ألقاها أحد الاخوة، وسمعناها كانت متناسبة مع حديثي الذي أريد أن أطرحه للاخوة.

وهذا التوافق الفكري والوحدة في المواضيع ظاهرة صحية وعلامة الوحدة الفكرية والانسجام العقائدي بين الافراد الذين يسكنون في مناطق متباعدة، وفواصل جغرافية كبيرة، ولكنهم يفكرون بأسلوب واحد، وطريق مشترك، وعندهم ألم مشترك، واحساس مشترك.

إصالة الانسان:

صحيح ان التكنلوجيا الحديثة تقرب الفواصل بين الناس، ولكن العقيدة الواحدة تقرّبها أكثر.

ان مسألة الانسان، مسألة مهمة جدا، فالمدنية الحديثة أقامت بناءها الفكري على نظرية (اصالة الانسان «أومانيسم») أي نظرية تقديس الانسان.

المشكلة ان الفلسفات القديمة ــ والتي ظهرت بعضها في لباس الاديان ــ حطّمت شخصية الانسان، وحملته على ان يقدم نفسه قربانا للآلهة، وكانت تغري الانسان على أن يجعل ارادته في مقابل ارادة الاله (المزيف) عاجزة، ويصبح مشلول الارادة. وكانت تدفع الانسان الى أن يطلب عن طريق الدعاء، والتوسل، والتضرع شيئا من الآلهة.

لهذا السبب فأن نظرية (أومانيسم) ــ اصالة الانسان ــ هي فلسفة ظهرت منذ «الثورة الفرنسية» مقابل الفلسفات اللاهوتية. تلك النظريات المتكئة على الغيب، وما وراء الطبيعة، وهدفها (أي نظرية اصالة الانسان) اعطاء الاصالة والاعتبار الاول للانسان.

وقد ظهرت جذورها في (أثينا) ولكنها تحولت الى منهب عالمي، وأصبحت القاعدة الفكرية والفلسفية للمدنية الحديثة في الغرب، وبالضبط برزت هذه النظرية كرد فعل معاكس لمذهب (الاسكولاستيكية) والدين المسيحي في القرون الوسطى.

وهدفي في هذه الليلة أن أحاول بقدر ما تتيح لي الفرصة، وبقدر

استطاعتي أن أبحث هذا الموضوع، حتى نرى أن ديننا، الذي هو دين الاسلام، ما هو رأيه حول الانسان؟ وكيف يفكر في ذلک؟

هل الانسان في نظر الاسلام، هو موجود عاجز هدفه المثالي، وغايته النهائية أن يبقى عاجزا أمام الله؟ وهل الاسلام ينظر الى الانسانية بنظرة الاصالة أم لا؟ وهل الاعتقاد بالاسلام سبب لعجز الانسان واستسلامه؟ أو العكس فأن الاعتقاد بالاسلام والايمان بحقيقة الدين الاسلامي هو نوع من الاعتقاد بأصالة الانسان، والاعتراف بقيمته وعظمة خصائصه وقدراته؟.

قصة الانسان والخلقة

لمعرفة النظرة التي تقدمها الاديان والمذاهب للانسان، فان أفضل طريقة هي التعرف على قصة وفلسفة الخلقة عند تلك الاديان، والمذاهب. وهنا لامجال لي أن أستقصي كل مذاهب الشرق والغرب حول فلسفة الخلقة الانسانية، ولذا فاني مضطر أن أكتفي بأستعراض فلسفة الخلقة في الاسلام والاديان التي جاءت قبل الاسلام، وتبعها الاسلام، مثل الرسالات التي جاء بها موسى، وعيسى، وابراهيم عليهم السلام.

فكيف وردت قصة الانسان في الاسلام، وفي رسالة ابراهيم (ع) التي جاء الاسلام مكملا لها؟ وكيف تُطرح وتُفسر ؟

هل يمكن أن نعرف مكانة الانسان عن طريق ملاحظة قصة خلق الانسان في القرآن، وفي أحاديث النبي (ص)؟

وكما قلت فمن طريقة استعراض قصة خلق آدم (الذي هو رمز الانسان) في القرآن يمكن أن يُعرف مقامُ الانسان عند الله، وفي نظرة الاديان،

وفي نظر ديننا الاسلام، ويمكن أن ندرک ماهو هذا الكائن: الانسان.

لغة الرمز في الاديان:

في البداية يجب أن أعرض هذه الحقيقة، وهي أن لغة الاديان ــ ولاسيما الاديان الصحيحة التي نعتقد نحن بأنبيائها ــ هي لغة رمزية.

والرمزية هي لغة تبين المعاني عن طريق الرموز، وهذه أحسن وأفضل لغة اكتشفها الانسان الى اليوم، بحيث انها أعمق، وأرقى من اللغة الواضحة التي تؤدي الى معانيها مباشرة، واكثر خلودا، وبقاء.

اللغة العادية البسيطة هي اللغة التي لا تُستعمل فيها الرموز، لغة يمكن أن تكون أسهل في التعليم والتفهم، ولكنها لاتبقى. لماذا؟

لأنه كما يقول (عبدالرحمن بدوي) الفيلسوف المعاصر: «ان المبدأ أو الدين الذي يبين جميع حقائقه ومعانيه في كلمات واضحة ومباشرة، وذات بُعد واحد وبسيط، هذا المبدأ أو الدين لا يخلد ولا يبقى. لماذا؟ لأن المخاطبين بهذه المكلمات ليسوا من طبقة واحدة فقط، بل هم من طبقات شتى، وجماعات مختلفة من مثقفين، وعامة الناس، وكذلک ليس هؤلاء لا يختلفون وكذلک ليس هؤلاء المخاطبون من جيل واحد، بل هم من أجيال مختلفة متعاقبة على طول التاريخ، وهؤلاء لا يختلفون من ناحية المستوى الفكري ومن ناحية العمق، والنضج العقلي، وزاوية النظر، وتفاوت نظراتهم الى الاشياء.

فلا بد أن يختار الدين لغة لبيان معاني فلسفته بحيث تكون هذه اللغة

متعددة الجوانب، ومتعددة الابعاد و الزوايا، لكي يصلح كل بعد من تلك الابعاد لجيل معين، ويفهم كل جماعة جانبا من تلك الجوانب. فاذا كانت لغة الدين ذات بُعد واحد، فانه يكون مفهوما لجماعة معينة، ويكون لسائر الجماعات بلا قيمة، أو يكون مفهوما لجيل واحد، وأما الجيل الثاني والثالث فلا يتمكن أن يستخرج منه معنى جديدا..».

لذلك فنحن نلاحظ ان الاعمال الادبية اذا كانت رمزية (ضبابية) فأنها تبقى طويلا. فقصائد الشاعر «حافظ» خالدة ــ لأنها رمزية ــ وكل مرة نحن نقرأها نفهم منها معنى جديدا، وبمقدار ما نملك من العمق، والذوق الادبي، والمنظار الفكري، فاننا نستخرج من أشعار حافظ معاني جديدة، ونستنبط منها مطالب أخرى. أما تاريخ «البيهقي» فليس كذلك.

وهكذا ديوان «سعدي» الشعري (روضة الاشعار).

فعندما نقرأ للشاعر المعروف «سعدي» أشعاره فان معانيها واضحة لنا وقد نتلذذ بتركيبها الفني أيضا، ولكن من الناحية المعنوية فقد تكون كثير من معانيها منسوخة الآن، لأنه واضح ما يقول، وما يقول باطل. بخلاف اشعار حافظ فلغتها رمزية أي متعددة الجوانب والابعاد، وكل رمز من رموزها ياخذه كل واحد منا، ويفكه حسب مستوى فهمه ونظرته وذوقه، ويكتشف منه معنى جديدا، ويستخرج كلاما وفكرا جديدين. ولذلك فان أرقى الاعمال الادبية ــ في الادب الاوربي ــ هو الاسلوب الرمزي، يعني التعبير بالرموز، واختيار أعمق المعاني تحت الفاظ خاصة ظاهرها يعطي معنى معينا، ولكن في باطنها يكمن معنى آخر لو أوتي الانسان المقياس،

والحس الادبي لتمكن أن يكتشف ذلك المعنى الباطني المرموز.

لهذا السبب فأن الدين بأعتباره نازلا لمختلف الفئات ولجميع الاجيال فيجب أن تكون لغته رمزية، فكثير من المعاني الموجـودة في الديـن لم تكن مفهومة في زمان ظهوره. ومن ناحية أخرى ان الدين يـريد أن يـوصل كـلامه للانسان لأنه اذا لم يستعمل لغة عادية. فـلا يكون كـلامه واضحـا. واذا بـيّن كلامه بلغة عادية ففي المستقبل سوف لن يكون لكلامه مـعنى جـديد ، فكان لابد أن يتكلم بأسلوب الرموز حتى تـحلل الرمـوز في المستقبل، وتـتوضح حسب مستوى رشد الانسان العلمي، ونموه الفكري.

آدم في القرآن

فمثلا قصة خلق آدم، يعني قصة خلق الانسان، كان مـن اللازم حتما أن تُعرض بلغة الرموز، حتى تُصبح في هذا اليوم، وبـعد أربـعة عشر قـرنا مَــن نزولها، وبعد تـقدم العلوم الطبيعية والانسانــية، تصبح بــالنسبة لنا قــابلة للمطالعة والتأمل.

فالانسان ـ في نظر الاسلام ـ كيف يتم خلقه؟.

في البداية يـقول الله (عز وجـل) لملائكته: (انــي جــاعل في الارض خليفة) ـ لاحظوا بدقة قـيمة الانسان في الاسلام كـم هي عظيمة ـ حتى أن نظرية (الاصالة الانسانية «أومـانيسم») في اوربـا والتي جـاءت بـعد الثورة الفرنسية، لم تتمكن أن تفترض للانسان هكذا قدسية، وعظمة بهذا السمّو و

التعالي. فالله تعالى ـ الذي في العقيدة الاسلامية، وفي اعتقاد كل مؤمن ـ هو أكبر وأعظم شيء، وهو خالق آدم، والمهيمن على خلقه، يخاطب الملائكة بأنه يريد أن يجعل الانسان خليفته في الارض، يعني أن رسالة الانسان في الاسلام تتحدد بهذا الخطاب، وبهذا التعريف ـ بمعنى أن الانسان يمثل الله في الارض، وعليه أن يعمل بنفس الدور الذي يقوم به الله بالتمثيل عن الله ـ اي بأذن الله ـ .

اذن فأول ميزة للانسان هي انه ممثل الله في الارض.

وهنا يسأل الملائكة من الله قائلين: **(أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ..؟)**.

هل تريد أن تخلق كائنا يقوم مرة اخرى بالجرائم والجنايات، وسفك الدماء (لأنه كان قبل آدم، اشخاص آخرون ارتكبو في الارض من الفساد والجنايات مثل ما يرتكب الانسان اليوم) فالملائكة سألو الله بأنه لو خَلَقَ انسانا جديدا في الارض فهل يقوم ثانية بنفس الفساد وسفك الدماء؟.

فيقول الله: **(اني اعلم ما لا تعلمون)**.

وبعدئذ خلق الله الانسان.

من هنا تبدأسلسلة الرموز، ثم انظروا ماذا يكمن خلف هذه الرموز من أسرار عميقة في علم النفس والانسانية. فالله يريد أن يخلق خليفته من الارض، ومن تراب الارض. اليس المفروض ان يختار له أفضل مادة وأحسن عنصر، بينما نجد العكس، يختار أخس مادة وأحط عنصر من عناصر الارض ـ وهو التراب ـ ليخلق منه الانسان.

في القرآن الكريم ورد في ثلاثة مواضع عن المصدور الذي خلق الله منه الانسان مرة يقول: (من صلصال كالفخار).

ومرة أخرى يقول: (من حمأ مسنون ــ أي من طين متعفن وكريه الرائحة مثل الوحل ــ .)

وفي مواضع أخرى يقول: (وخلق الانسان من طين)

الانسان بين الطين وروح الانسان

اذن فأن الله تعالى أراد ان يخلق خليفته في الارض، وممثله الانسان العظيم من طين أو من وحل متصلب، وبعدئذ نفخ من روحه في هذا الهيكل الترابي، وَوُجِد الانسان.

ففي لغة البشرية: يُعتبر الطين والوحل رمزا الأحط شيء وأخس الاشياء وأشدها عفونة ودنائة، فلا يوجد في الموجودات شيء أخس من الوحل، وهكذا في مفهوم البشر. وبالمقابل فان أفضل شيء وأعلى وأعظم الاشياء هو الله، وفي كل شيء أعظم وأقدس ما فيه روحه، والروح أشرف العناصر.

فهذا الانسان الذي هو ممثل الله مخلوق من الطين المترسب أو الوحل، يعني من أحط مادة فوق الارض، وبعدئذ نفخ الله فيه من روحه ــ وليس من جانب آخر من جوانبه لو كان به جوانب ــ يعني من أشرف شيء يمكن أن يعُبّر عنه البشر، ويضع له أسما، فالله ــ واجب الوجود ــ أعلى

شيء في الوجود، وروحه يعني أعلى شيء في الوجود يمكن تصوره، أي أعلى مفهوم يمكن أن يرد في ذهن الانسان.

اذن فالانسان مخلوق من شيئين: من الطين ــ الوحل ــ ومن روح الله، يعني انه كائن ذو بُعدين.

يريد القرآن أن يقول بأن الانسان هو موجود ذو اتجاهين، بخلاف سائر الموجودات فهي كلها ذات بُعد واحد. فَبُعد منه يميل الى التراب والانحطاط، وينشدّ الى الترسب في الارض والجمود والتثاقل والتوقف، مثل الطين الذي يترسب في قاع البحار والانهار، فعندما يطغى الموج فيها، يترسب التراب ولا يموج ولا يتحرك كالموج، بل يترسب، ويستقر في القاع ويتكلس.

الانسان وصراع القطبين

فطينة الانسان وطبيعته ــ الترابية ــ أيضا تميل الى الرسوب والتوقف والانشداد الى الخمول والراحة. ومن طرف آخر فان بُعده الثاني هو روح الله (بتعبير القرآن) يميل الى التعالي والرقي، ويتجه الى الصعود، والسّمو الى فوق والى أعلى قمة في الوجود يمكن تصورها، أي الى الله.

اذن فالانسان مخلوق من قطبين متناقضين، واحد: الطين، والآخر: روح الله. وهذا سر عظمة الانسان، انه كائن ذو بُعدين، وموجود ذو قطبين، متناقضين. ثم بأرادته يصمم على أن يتجه اما الى بُعده الارضي، وينشدّ الى

قطب التراب والترسب، أو ينطلق في بُعده السماوي، ويصعد في قطب السمو الالهي والروح الالهية. ويبدأهذا الصراع في داخل الانسان، والتجاذب بين هذين القطبين، حتى يختار الانسان أحدهما، ويقرر مصيره.

ثم يقول سبحانه: (وعلّم آدم الاسماء كلها).

ثم يعلم الله الانسان الاسماء، ولكن ما معنى تعليم الاسماء للانسان؟ وما هي هذه الاسماء؟ كل ذلك غير معلوم لحد الآن، فكل يقول شيئاً، وكُل مفسر له تفسير معين، ورأي خاص.

فهناک من يقول: انه رمز.

والخلاصة ان كل واحد بتعبيره و طريقة تفكيره ذكر معنى من المعاني، والذي لاشک فيه ان الحديث هو عن العلم والتعليم والمعرفة، فبعدما يخلق الله الانسان يُعلّم خليفته الاسماء، والانسان تُصبح عنده هذه الاسماء.

أفضل من الملائكة

ثم يسال الملائكة: اننا مخلوقون من نور، وهذا الانسان مخلوق من الطين المترسب، فكيف تفضله علينا، ونحن نسبح ونقدس لک، فيقول: اني أعلم مالا تعلمون ــ ويقول لهم: (اسجدوا لآدم).

هذا معنى (اصالة الانسان).

فهل يمكن أن نعرف عظمة الانسان الى هذا الحد؟ الى درجة ان الملائكة التي يتفوق عنصرها على آدم، لأنها مخلوقة من النور، وآدم من تراب، ومتميزة ذاتيا عليه، مع ذلک فهي تسجد له.

ولأنهم سألوا الله عن سبب تفضيل آدم عليهم، فقد أراد سبحانه و تعالى أن يبين لهم سر عظمة الانسان، وسبب تفوقه عليهم، فامتحنهم الله، وسألهم عن تلك الاسماء، واذا بهم لا يعرفونها:

(قال أنبؤني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين، قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا).

بينما آدم كان يعرف تلك الاسماء (قال يا آدم أنبئهم بأسماء هؤلاء، فلما انبأهم) تبين فضل آدم وسر تفوقه على الملائكة ـ لأنهم سقطوا في الامتحان ـ وفضله عليهم هو العلم بالاسماء، لهذا فهم يقعون له ساجدين.

وهذه خير طريقة لتعريف شخصية الانسان في الاسلام. فالانسان يعرف أشياء لا تعرفها الملائكة، ولهذا فمع أفضلية عنصر الملائكة والشيطان وتفوق جنسهما على جنس الانسان، فان الانسان تفّوق عليهما، لأن قيمة الكائن واصالته هما بمقدار علمه ومعرفته، وليس بعنصره.

المرأة من طينة الرجل

والمسألة الثانية، هي خلق المرأة من ضلع الرجل ـ كما يُقال ـ والصحيح أنها خلقت من طينته، هكذا ورد في الروايات الاسلامية، وفي لغة التوراة العبرية، بأن المراد من الضلع هو الطبيعة (خلقنا حواء اي المرأة من طينة الرجل). وهناك رواية تقول بأن المراة خُلقت من الضلع الايسر للرجل، لذلك فان عدد ضلوع المرأة ناقص عن عدد ظلوع الرجل. ورجل

كبير مثل (نيتشة) يقول: «ان المرأة مخلوقة من عنصر، والرجل من عنصر آخر، وبعد ذلك تشابها، ثم تزاوجا في طول التاريخ، يعني انهما مخلوقان من عنصرين مختلفين.

وجميع الفلاسفة والحكماء تقريبا لو حسبوا الرجل والمرأة من عنصرين مختلفين، فهم يريدون غالبا أن يحقروا طبيعة المرأة، ويفضلوا طبيعة الرجل. أما في القرآن فأن الله تعالى يقول: (**هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها**) أي من نفس عنصر الرجل وطبيعته، يعني ان المرأة والرجل من طينة واحدة وأصل واحد.

الانسان وأمانة الله

وأما الموضوع العجيب الآخر في قصة خلق الانسان هو: ان الله ينادي كل الموجودات والكائنات الطبيعية من جماد، ونبات، وحيوان، ويعرض عليها الامانة (**انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها**) فيدعو الله الارض والسماء والجبال والحيوانات الى حمل الامانة فيخافون من حملها ولا يتحملونها، (**وحملها الانسان**)، وهذه ــ كما يبدو ــ فضيلة أخرى للانسان، وسر ثان لعظمته، وهو أنه حامل لأمانة الله، التي عرضها على جميع الكون فلم يقبلوا حملها، وحملها الانسان.

يعني أن الانسان في الارض هو خليفة الله وممثله، وحامل لأمانة الله

ايضا، والآن ماهي هذه الامانة؟.

كل يقول شيئا.

ويقول المولوي: «هذه الامــانة هي الارادة، والاختيار عند الانسان». وهذه هي عقيدتي.

فالفضيلة الوحيدة التي يتميز بها الانسان على جميع الموجودات في العالم هي ارادته.. يعني أنه الموجود الوحيد الذي يتمكن أن يعمل شيئا حتى خلاف طبيعته، ويختار شيئا ضد غريزته. فالحيوان أو النبات لا يتمكن أن يتصرف ضد طبيعته، أو يعمل شيئا خلاف غريزته، فلا يمكن أن تشاهد حيوانا يصوم في النهار، ولم نسمع أو نشاهد بأن عشبا من النباتات انتحر من شدة الالم، أو أنجز خدمة كبيرة، أو ارتكب خيانة. يعني أنه لا يمكن أن يعمل شيئا خلاف الطريقة التي خُلق عليها. الانسان هو الوحيد الذي يتمكن أن يتمرد على الطريقة التي خُلق عليها، وحتى على احتياجاته المعنوية والمادية وغرائزه الجسدية. يتمكن أن يعمل الخير، ويعمل الشر، أن يعمل بعقله وأن يعمل بخلاف عقله، وهو حر أن يكون خيّرا أو شريرا، أن يصير ترابيا أو ربانيا، وعلى هذا تُعرف العلاقة بين الانسان و بين الله.

الانسان والحرية والاختيار

او ليس قد نفخ الله فيه من روحه، و حمّله أمانته؟

اذن فالانسان هو خليفة الله على الارض، ويستمد ارادته من ارادة الله، و روح الله، هذه الموجودة في الانسان. ومثلما ان الله يملك الارادة فكذلك

الانسان عنده الارادة من الله، يعني ان الله الذي هو وحده يملك الارادة المطلقة في الكون، ويستطيع أن يفعل ما يريد حتى لو كان خلافا للمنظومة والقوانين الكونية، نفخ في الانسان من روحه، فيتمكن الانسان أن يعمل ـ مثل الله ـ مايريد

[طبعا ارادته هذه، بأرادة الله، واختياره لأي شيء بأذن الله وهو مخول بصلاحية الاختيار والعمل بما يريد من قبل الله، كما يوضح سبحانه وتعالى ذلك بقوله: «وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين» ـ المترجم].

فهو في الارادة يقتدي بالله، وهو فقط يتمكن ان يعمل بما يريد خلافا للقوانين والطبيعة الفيزيولوجية.

اذن فالعلاقة بين الله والانسان، هي هذه القدرة على الاختيار، وهذه الحرية حرية الصلاح او الفساد، وحرية الطاعة او الطغيان، والمعصية ـ وهذه الحرية والاختيار يؤهلانه لخلافة الله وتمثيله في الارض، وعلى هذا الاساس، فالمستفاد من هذه الفلسفة في قصة الخلق هو هذا:

اولا: ان الناس كلهم أخوة، وليسوا متساوين فقط، والفرق بين الاخوة والمساواة واضح تماما، فالمساواة اصطلاح حقوقي، بينما الاخوة هي تعبير عن الطبيعة المشتركة بين جميع الناس، فالناس على اختلاف الوانهم هم من أصل واحد.

ثانيا: التساوي بين طبيعة المرأة والرجل، يعني بخلاف كل الفلسفات القديمة، وطريقة التفكير في السابق، فأن المرأة والرجل كلاهما من طبيعة

واحدة، وخُلقا في وقت واحد وبيد واحدة. لذلك فهما متساويان، من كل الجهات، ومتحدان في الطبيعة والطينة والعنصر، ومتآخيان، يعني انهما من أصل واحد.

ثانيا: ان ميزة الانسان وتفضيله على الملائكة والعالم هي ميزة العلم، وفضيلة المعرفة، لأنه عرف الاسماء، لذلك سجدت له الملائكة، والملائكة مع علمها بتفوق عنصرها واصالة ذاتها تسجد له.

والاهم من ذلك ان الانسان بين قطبين: الله والتراب، وبما انه يملك الارادة، فيتمكن ان يختار قطب الله أو قطب الطين، ولأنه يملك الارادة فهو مسؤول، لأن الحرية والاختيار يوجبان المسؤولية.

الانسان والمسؤولية:

من هنا فان الانسان في نظر* الاسلام، كائن مسؤول عن مصيره، بل ليس مسؤولا عن مصيره فقط وانما هو مسؤول عن أداء رسالة الله في العالم، وحامل الامانة في الكون، والطبيعة. فهو قد تعلم الاسماء، والاسماء معناها الصحيح في نظري هو عبارة عن الحقائق العلمية المختلفة، لأن الاسم علامة كل شيء، أي الوجه المشخص لكل مفهوم. و على هذا فأن تعليم الاسماء لآدم ــ من قبل الله ــ يعني هو ادراك، وفهم الحقائق العلمية والقابلية التامة لفهم المعاني الموجودة في العالم.

فالانسان على هذا الاساس وبتعلمه من الله يتمكن أن يُدرك، و

يستوعب جميع الحقائق المبثوثة في الكون والطبيعة، وهذه مسؤولية أخرى، و أكبر مسؤولية مصير الانسان يجب أن يُصنع بيده، كذلك فالمجتمع الانساني مسؤول عن تقرير مصيره بنفسه، وكذلك الفرد الانساني مسؤول عن مصيره (لهاما كسبت ولكم ماكسبتم). فمصير الامم السابقة هو ما صنعوه بأيديهم، ومصيركم يكون هو ماتصنعونه بأيديكم.

اذن فالانسان عنده مسؤولية كبيرة تجاه الله، لأنه يملك الحرية والارادة. فعلى هذا تكون النتيجة ان الانسان حامل أمانة الله و ممثله في الارض، وهو يملك بُعدين، الاول: الانحطاط «حمأمسنون» والثاني: الانطلاق والصعود الى الله (من روحي).

وهنا يلزم أن أشير الى مسألة وهي ـــ مع الاسف ـــ ان التاريخ يشهد (تراجيديا) غريبة، وهي ان الانسان لم يُعرف بهذه الصورة ذات البُعدين، كما ان الاديان الاخرى تصور بأن الله والشيطان هما في صراع معافي الطبيعة. بينما في الاسلام توجد قوة واحدة في الطبيعة وهي قوة الله وحده، ولكن في داخل الانسان يوجد صراع بين الله وبين الشيطان، وقلب الانسان ساحة حرب بين هذين الاثنين.

الانسان والشيطان

اذن فالثنوية الموجودة في الاسلام ـــ بخلاف المذاهب السالفة ـــ انما هي اتجاهان في العبادة ـــ اي معبودين والهين في داخل النفس البشرية،

وليس في الطبيعة. أما في الطبيعة فيوجد اله واحد، وارادة واحدة، وهي ارادة الله. لذلک فالشيطان ليس في مقابل الله، بل في مقابل الانسان، في مقابل ذلک النصف الرباني من الانسان، و بما ان الانسان موجود ذو بعدين ويتكون من التراب ومن روح الله، فهو محتاج الى التراب، ومحتاج الى الله ايضا. وان الدين والايدلوجية التي يجب ان يختارها، أوالحياة التي يجب ان يبنيها و يؤمن بها، يجب ان يكون دينا أو حياة او ايدلوجية تلبي حاجات الانسان الجسدية المادية والروحية، وتهتم بكلاالبُعدين.

فالتراجيديا أن التاريخ ـ للاسف ـ لا يحكى لنا بهذا الشكل. التاريخ يقول: بأن المجتمعات اما كانت تتجه الى اختيار الآخرة، والزهد في الدنيا، أو كانت تنشدّ الى التراب وتميل الى اختيار الدنيا.

وكل المدنيات كانت هكذا.

فمدينة الصين، كانت أولا دنيوية، وتعطي الاهتمام الاساسي للّذائد والتجملات، والسعي لأستغلال أكبر قدر من الموارد الطبيعية، ونموذج ذلک كان حياة الاشراف في الصين. ثم جاء (لاوتسو) بمذهب اخروي، يعني أنه يميل بشدة الى ذلک النصف المعنوي الماورائي من الانسان، وقد جر الصينيين ـ بقوة ـ الى هذا الاتجاه بحيث ان اناسا كانوا حريصين ـ دائما ـ على الاستفادة من اللذائد الحياتية تحولوا الى رهبان ومتصوفين وعارفين.

ثم جاء (كنفشيوس) وقاد المجتمع الى النزعة الدنيوية، ودعى الصينيين الى الملذات الحياتية، فأنحرفت الصين مرة أخرى نحو هذا

الاتجاه.

وكانت الهند في فترة من الفترات مركز الراجوات واساطير الف ليلة وليلة، وتحولت عن طريق بوذا والبوذية الى النزعة الاخروية، وانجرت الى الزهد والرهبنة والتصوف، وتزكية النفس.. لهذا فان مركز الراجوات أصبح الآن مركز الصوفية والمرتاضين والنوم على المسامير، والصوم لمدة اربعين يوما، مع الاكتفاء بحبة تمر أو لوز، وسائر الرياضات الروحية، والابتعاد عن الحياة المدنية.

الانسان في اوربا

وفي أوربا كان الرومان ينزعون الى الجنايات، وسفك الدماء لغرض التسلط، والسيطرة السياسية والعسكرية على العالم والحصول على الغنائم والثروات في آسيا و اوربا. وكانت الروم تغرق في بحر النعيم، والملذات، واللهو، واللعب، ثم جاء المسيح (ع) وقاد المجتمع الى النزعة الاخروية، فاتجهت الروم من اللهو واللذة، والنزعة الدنيوية الى الرياضة، والحث على الآخرة، وتمادت في ذلك حتى سقطت في ظلمة القرون الوسطى، فتحول مركز الحروب والدماء، والقوة والسيطرة العسكرية الى مركز الصوامع والاديرة والرهبانية والاعتزال في القرون الوسطى، ثم جاءت الثورة الفرنسية و حولتها الى النزعة الدنيوية. و هذه المرة نرى اوربا و مدنيتها اليوم منحرفة نحو النزعة الدنيوية الى درجة أنها حصرت الانسان

والانسانية في اللذة، والحياة المادية، والعيش بشكل ألذ، بحيث أن البروفسور (شاندل) يقول: «ان دنيا اليوم جعلت حياتها وقفا على توفير وسائل الانتاج».

وهذه حماقة الفلسفة البشرية المعاصرة، و هذا هو معنى التكنلوجيا بلاهدف، ومعنى المدنية المجردة من المعنويات. فالبشرية اليوم أصبحت منحرفة صوبالمادية المفرطة الى درجة انها بحاجة الى مسيح آخر.

التوازن في الاسلام

اما فلسفة الانسان في الاسلام فهي تؤدي الى ان الانسان كائن ذوبعدين، ويجب أن يكون الدين ذابُعدين ايضا. ويشبع حاجات الانسان المادية والمعنوية، حتى يعيش الانسان في توازن وتعادل بين الجهتين المتناقضتين، و هذا هودين الاسلام.

بأي دليل؟

ــ لمعرفة اي دين يجب ان نتعرف على الاله في ذلكالدين، وعلى رسول وكتاب ذلك الدين، ونعرف الطليعة التي تخرجت منه:

* اولا: لنعرف الله في الاسلام، فهو اله ذوبُعدين و نوعين من الصفات، فهو من جهة مهيمن، و حاكم على الدنيا والمجتمع الانساني، و قهار و شديد العقاب، و متكبر (كما في عقيدة اليهود) وهو رؤوف، ورحمن، ورحيم (كما في عقيدة المسيحية) وهذه كلها صفات ثابتة لله و مذكورة في

القرآن معا.

* والقرآن هو كتاب، فيه أحكام اجتماعية، وسياسية، و عسكرية، وحتى قوانين الحروب ومعاملة الاسرى واطلاق الاسرى، والرغبة في الحياة والتعمير والصناعة والكفاح ضد الاعداء، وايضا هو كتاب يعتني بتزكية النفس وسمو الروح والاخلاق العالية للفرد.

* وهكذا نبي الاسلام (ص)، هو انسان ذوجانبين متضادين ـ كما نشاهد في تاريخ الشخصيات ـ (جُمعت فيه الاضداد) فهو رجل قيادي يحضر في ساحة الكفاح والمقاومة السياسية مع العدو و عناصر التخريب في المجتمع، وهو دائما بصدد بناء المجتمع الجديد، والتمدن الجديد في الحياة، وهو بصدد هداية البشر الى هدف خاص ايضا، كما انه رجل صلاة ونسک، وتقوى.

* و بعدئذ الطليعة الاولى التي كوّنها الدين، أمثال الامام علي (ع)، وأبوذر، و سلمان، وهؤلاء كانوا ايضا افرادا ذوي بُعدين في الحياة، فهم من ناحية رجال سياسة و حرب، وكفاح، لأجل حياة أفضل، كما نشاهدهم دائما يخوضون ساحات الحرب والتوعية والبحث العلمي والتحقيق، وهم من ناحية أخرى رجال تقوى، و طهارة مثل الرهبان والزهّاد الكبار في الشرق. فابوذر مثلا كان رجل سياسة، و رجل جهاد و كفاح ضد الفقر والاستثمار في عهد عثمان، كما كان رجل علم وتقوى. وما تركه لنا ابوذر من التحقيقات، والتأملات حول معرفة الله تعد اليوم نموذجا ومفتاحا لمعرفة القرآن.

وجميع اصحاب الرسول (ص) عندما ننظر في حياتهم وتاريخهم

نجدهم كلهم رجال سيف، لاجل بناء مجتمع أفضل، وحياة أرغد، و رجال عدالة في المجتمع، ورجال الفكر الارقى، والشعور الاسمى.

والخلاصة: ـ

ان النتيجة التي أريد استخلاصها هي:

ان الانسان ــ في اظل الاسلام ــ ليس كائنا مستحقرا و مستذلا امام الله، بل هو خليفة الله، وكائن عزيز عند الله، و حامل لأمانة الله في الارض، وقد علمه الله، وأمر ملائكته بالسجود له.

والانسان الذي هو ذو بُعدين، وصاحب هكذا مسؤولية، يحتاج الى دين لا يصرفه الى النزعة الاخروية البحتة، ولا الى النزعة الدنيوية المطلقه، بل يحقق له التعادل، والتوازن، يعني انه بحاجة الى دين ذي بُعدين حتى يساعده على تنفيذ مسؤوليته الانسانية.

حسين يوسف اللويمي

سروش

دار سروش للطباعة والنشر ـ الجمهورية الاسلامية الايرانية

الثمن ٢٥ ريالاً ايرانياً